الباب الرابع

تفسير السلوك الاجرامى والجناح

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل العاشر

النظريات البيولوجية والجسمانية وتفسير الجريمة

١ ـ الوراثة

ان علم النفس الجنائى علم حديث ولم تنظم المادة التى جمعت فيه تنظيما يرفع هذا الفرع من فروع علم النفس الى مستوى فروعه الأخرى . وان كانت الجريمة قديمة قدم التاريخ وقدم المجتمعات ، وان كان البحث عن أسبابها قديم أيضا . غير أن تأهيل المجرم وعلاجه أمران جـــديدان ، ويكفى للدلالة على ذلك أن عمل السجون نفسها كمكان للتهذيب والاصلاح لا يزيد على المائتى سنة . اذ كانت العقبات السائدة قبل ذلك هى التعذيب بأنواعه المختلفة والاعدام .

١ ـ طبيعة الانسان أم المجتمع :

تناول الفلاسفة والعلماء من أقدم العصور تفسير الجريمة كظاهرة اجتماعية تدخل فى نطاق محاولتهم الاجابة عن سؤالين: كيف يسلك الناس فى مواقف معينة؟ ولماذا ؟ وانقسمت الآراء فى ذلك منذ القدم الى قسمين : قسم يعزو الأصل فى السلوك الى المجتمع وقسم يعزوه الى طبيعة الانسان .

وأعطى لنا الفلاسفة اليونانيون هاتين النظريتين المتعارضتين عن الأصل فى سلوك الانسان وتعزى احداهما الى أفلاطون بينما تعزى الثانية الى أرسطو .

فأفلاطون كان مثاليا حاول انقاذ اليونان وثقافتها من الانهيار فحاول تقديم

نظام اجتماعى لتحقيق هذا الهدف لذلك تكلم عن أسباب السلوك، وفى رأيه أن الناس تسلك كما تسلك لأنهم تعلموا ذلك من ثقافتهم ، إذ يولد الناس ولديهم القدرة على تعلم طرق السلوك التى يدربهم عليها المجتمع . ويمكن تحويل الانسان إلى كائن اجتماعى بالعملية التى نسميها الآن بالتنشئة الاجتماعية وهى عملية تبدأ عند الولادة وتنتهى بالموت وتشمل كل التوجيهات التى اكتسبها الفرد من حوله. وبهذا يتوقف سلوك الفرد على المجتمع . والجريمة فى رأيه لا ترجع إلى سبب طبيعى فى الانسان بل إلى أسباب مكتسبة. وهو يفرق بين مجرم يقوم بعمله بالارادة ومجرم يقوم بعمله دون إرادة .

أما أرسطو فقد فسر سلوك الانسان برأى قلب فيه الأوضاع الموجودة فى رأى أفلاطون إذ يرى أن المجتمع يتوقف على طبيعة الفرد . إذ يولد بغرائز تسيره ولا يمكن تبعا لذلك تغيير طبيعة الفرد ولا يمكن بالتالى تغيير المجتمع وقد أدى إلى هذا الرأى ما وجده من نظرته السطحية من تشابه الناس فى المدن اليونانية المختلفة ومن توحد طريقتهم فى أسلوب حياتهم وتشابه أنماط حياتهم . وطبقا لهذا الرأى يوجد المجرم الشرير بالسليقة الذى لا يمكن إصلاحه ، وكان يرى أن فى الأفراد خصائص جسمانية معينة كالشعر ولون البشرة وطول القامة وما اليها تدل على سماتهم الخلقية التى يمكن منها التنبؤ بأخلاقهم .

ويقول سعفان [1] إنه كان بهذا الرأى ممهداً لأصحاب علم الانثروبولجيا الجنائية والمدرسة الايطالية لعلم الاجتماع الاجرامى .

---

(١) حسن شحاته : علم الجريمة .

٢ - مبدأ اللذة والالم :

كثيراً ما يحدث فى فترات التغير الاجتماعى والانقلابات والانحلال الاجتماعى أن تقوم الدعوة بأن هذا أمر طبيعى لا مفر منه وأن العلاج لذلك هو العودة الى القديم . وكانت اجابة سقراط على ذلك أن ما يفعله الانسان يفعله لمبدأ اللذة ، وما يتجنبه انما ليتجنب الألم . وهذا هو مبدأ اللذة والألم الذى ساد ونجد له من الاتباع من يؤمنون به حتى وقتنا الحالى . ومن رأيه أن هذا يتم بحكم طبيعة الانسان . وهكذا عزا لطبيعة الانسان مايقوم به الانسان من سلوك ووقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أرسطو .

وفى أوائل العصر الرومانى وقبل ظهور المسيحية ظهر تفسير قانونى للسلوك مبنى على اللذة والألم اليونانى . وخلاصته أنه يمكن تغيير المجتمع عن طريق القانون بالثواب والعقاب ما دام الناس لن يفعلوا الا ما يجلب اللذة ، والجريمة سبيل للوصول الى اللذة . اذ يسعى المجرم للذته على حساب المجتمع ووظيفة القانون اقامة العقوبة التى تجعل المكسب الذى يصل المجرم اليه بجريمته غير مجز ، لذلك يجب ألا تكون العقوبة أقل من المكسب الذى يعود على مقترف الذنب اذ يجب أن تزيد ولكن ليس الى حد الظلم .

٣ - مبدأ الارادة الحرة :

اعتبر أرسطو دوافع السلوك ومكونات المجتمع بالتالى هى « الطبيعة » أبدل علماء الدين فى العصور الوسطى مفهوم « الطبيعة » بمفهوم «الله» بيد أن هذا أدى الى محاولة تفسير لماذا يقوم بعض الناس بالأفعال الشريرة التى لا يمكن أن يكون مرجعها الله . لم يتعرض أرسطو لهذه الناحية . غير أن علماء الدين أوجدوا تفسيراً لذلك بخلق « الشيطان » الذى يغرى الناس ببعض الثواب المؤقت ليحيدوا

عن الطريق الذى يريده الله وللناس حرية الخيـــار التى أعطاها لهم الله ليتخذوا أى الطريقين ، اما طريق الشيطان أو طريق الله.وتعرف هـذه النظرية بنظرية الارادة الحـرة . وقد أكدت هذه النظرية رأيا قديما ظل سائدا الى عهد قريب ويشرح السلوك المنحرف وهى نظرية استحواذ الشيطان على الفرد . غير أن هذه النظرية لا تعفى الانسان من شعوره بأن هناك قوة تسيطر عليه دون ارادته ، بل أنها تقسم هـذه القوة الى شطرين وتدع الانسان ليختار بينهما . وهكذا نجـد أن الانسان فى هذه النظرية مقيد بمقدار ما هو مقيد فى نظرية أرسطو بالطبيعة أو بالغرائز . غير أن الانسان يواجه هنـا عالمين عالم الله وعالم الشيطان وكل من المجتمعين تسيره قوة خارجة عن ارادة الانسان . والانسان بذلك مخيركما توحى بذلك هذه النظرية فالمجتمع مصنوع له .

لقد أثرت هـــذه النظرية الدينية فى العقوبة وراكبت مبدأ اللذة والألم وطبقت فى العصور الوسطى المحاكمات لعقاب المجرم ولجعله عظة للغير . وكثيراً ماكانت العقوبة تقرر ويترك لك أمر انقـاذ المحكوم عليه كان بريئا . اذ كان المحكوم عليه يرمى مثلا فى الماء المغلى ، فاذا كان الله بجانبه فسينقذ ، أما اذا كان العكس فستناله العقوبة .

يقوم كل من مبدأ اللذة والالم ومبدأ الارادة الحرة على سيكولوجيةالارادة وظل لهذين المبدأين صداهما حتى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث نجد أثرهما فى آراء المدرسة المعروفة بالمدرسة الكلاسيكية من علم الجريمة ومن زعمائها بكاريا Baccaria (١٨١٩) اذ كان يرى أن اللذة والألم هما مصدر أفعال الانسان وأن الجريمة ضرر لاحق للمجتمع . ويجب أن يعاقب المجرم عقابا يوازى الجرم الذى وقع منه ، فالجريمة ضد الممتلكات تعاقب بالغرامات وله الفضل

فى مهاجمة العقوبة بالاعدام ومهاجمة التعذيب والمحاكمات غير العادلة واتهمه القضاة المعاصرون بأنه حامى حمى اللصوص والقتلة .

٤ ـ النظرية الايجابية :

يمكننا ارجـــاع بداية البحث عن الاصول النفسية للجريمة أو علم النفس الجنائى الى المدرسة الايجابية التى يتزعمها سيزار لمبروزو . اذ تمسك لمبروزو واتباعه بأن علاج السلوك الاجرامى يجب أن يقوم على أساس فهم سيكلوجية المتهم . فطبيعة المجرم هى التى يجب أن توضع فى الاعتبار لا طبيعة الجريمة التى تم اقترافها. وقد حاول لومبروزو تأكيد أهمية السببية فى السلوك الإجرامى غير أنه كان يرى أن الجريمة، ظاهرة طبيعية ضرورية، كالولادة والموت والحمل، ومن رأى لمبروزو أن المجرم بالولادة هو النوع السائد بين المجرمين وفى رأيه أنه يمكن التعرف على مثل هذا المجرم من خصائص جسمانية كالوجه غير المتناسق ، والآذان الكبيرة أو الصغيرة جداً بشكل ملحوظ والجبهة المنخفضة ، والحواجب البارزة والذقن العريضة ، وعظام الفك البارزة . والصورة التى يصفها لمبروزو تقرب من الصورة الحيوانية . ولما كان لمبروزو قد تأثرت آراؤه بنظرية التطور فقد اعتبر هذه الصفات موروثة عن الأجداد .

وكما اعتبر لومبروزو الصفات الجسمانية متوارثة ، فقد أعتبر أيضا الصفات السيكلوجية والفسيولوجية متوارثة أيضـــا . ومن هذه الصفات القدرة على مقاومة الألم ، وحـــدة الأبصار ، والقدرة السريعة على الشفاء من الجروح والتشابه الكبير بين الجنسين ، والكسل، وعدم الشعور بالعار ، أو الشرف ، أو الندم أو الشفقة والاستهتار ، وسرعه الاستثارة والميل للمقامرة ومعاقرة الخمر ، والغرور ومع وجود فكرة خاصة عن الله .

وقد كان لومبروزو يرى أن هناك منطقة مشتركة بين الاجرام والصرع الذى اعتبره سببا هاما من أسباب الجريمة .

وعلى الرغم من أن لومبروزو وصف أنماط أخرى المجرمين ، وعلى الرغم من أنه أعطى أسبابا عديدة للجريمة ، غير أن اهتمامه كان دائمـــا بالأسباب الفسيولوجية ، وفى رأيه أن الأسباب العضوية تتدخل فى أسباب السلوك الاجرامى بنسبة ٣٥ أو ٤٥ ٪ .

وتتسم معظم نظريات القرن ١٩ وأوائل القرن العشـــرين باعطائها أهمية كبيرة لعامل الوراثة . فجورنج نفسه ١٩١٣ الذى قام بدراسة احصائية مقارنا فيها المجرمين بالسويين فى الصفات الجسمانية ليثبت فساد نظرية لمبروزو كان يعتقد أن الجريمة حصيلة للوراثة .

ويعتبر داج ديل ١٨٧٧ من أشهر من نادى بنظرية الوراثة كسبب للجريمة اذ قام بتتبع أفراد عائلة الجوكس لسبعة أجيال فوجد أن هذه العائلة خرجت ٢٠٠ لصا ، ٢٨٠ شحاذاً ، ٩٠ عاهرة . وعلى الرغم من أنه أعطى بعض الاعتبار للبيئة التى عاشت فيها هذه الأسر غير أن العوامل البيئية فى نظره كان لهـا دور ثانوى .

وكان جودارد (١٩١٤) من دراسته لعائلة الكاليكاك يرى أن الجريمة تعزى الى الضعف العقلى الوراثى .

غير أن الوراثة كما بينا فى فصل سابق لا تؤثر فى السلوك بطريق مباشر ولكن عن طريق التكوينات الجسمانية وبينا أهم التكوينات الجسمانية التى تؤثر فى السلوك كالجهاز العصبى المركزى . والجهاز العصبى الاوتونومى والغدد

والعضلات . وتوجد بعض النظريات المعاصرة التى تحاول الربط بين السلوك الاجرامى ووظائف هذه التكوينات .

معارضة نظريات الوراثة

لم تذهب النظريات السابقة دون نقد . فقد أدى ازدياد التجارة والعلاقات الخارجية الى التعرف على مجتمعات أخرى فترى مونتسكيو فى أوائل القرن ١٨ يقدم نظرية لها أهمية نظرية إفلاطون . ففى رأيه أن السلوك الحسن والسلوك الردىء مرتبط بالجماعة التى تمارس هذا السلوك، فقد وجد أن ما هو مقبول فى مراكش والجزائر قد يبدو قبيحا وغير مقبول فى فرنسا وانجلترا . وعزا هذا الاختلاف بين الجماعات إلى المناخ . وعلى أساسه أخذ يفسر نظام الأسرة وما اليها . وفى رأيه أنه إذا أراد الانسان التغيير فما عليه إلا أن يغير المناخ الذى يعيش فيه . ومع ما لأهمية اكتشاف مونتسكيو فى العلوم الاجتماعية من حيث فتح الطريق لدراسة الحقائق الاجتماعية والتخلى عن الأفكار السابقة غير أنه فسر السلوك بأثر عامل واحد وهو المناخ .

وعارض تارد وهو قاض فرنسى نظريات الوراثة فقد وجـــد أن الناس لا يتأثرون بالمنطق . والجريمة فى الانسان ليس مصدرها طبيعة الانسان ولكن مصدرها المجتمع . فنادى بأن السلوك الاجتماعى معد وأنه ينتشر من فرد إلى فرد عن طريق العملية التى تسمى بالتقليد ، وأن الناس بطبيعتهم لديهم القابلية للايحاء ، وأنهم يفعلون ما يفعله الغير . فالمجرم ما هو إلا فرد حدث أن نشأ بين المجرمين فقلدهم فى أعمالهم . ونظراً لأنه عاصر ثورتين وجـــد أن الناس يثورون بحكم التقليد ونظريته نظرية تصف السلوك ولا تفسر أسبابه .

لقـــد انتقد تارد نظرية لومبروزو انتقاداً مراً . وفى مقال للدكتور سيد

بدوى [1] عن القانون والجريمة والعقوبة فى التفكير الاجتماعى الفرنسى عرض بالتفصيل انتقادات تارد لنظرية لمبروزو والتى نشير إلى بعضها اقتباسا من هذا المقال :

١ ـ من الناحية التشريحية أو من ناحية التكوين الجسمانى مما أعطاه لمبروزو للمجرم يذكرنا فى بعض سماته بالبدائى أو بالمتوحش أو بمن لم ينالوا من المدنية إلا حظا ضئيلا،وهذا التشابه على فرض وجوده لا يفسر لنا سبب إجرامه وذلك لأن البدائية ليست بذاتها مرادفا للاجرام .

٢ ـ من الناحية الوظيفية يميل لمبروزو إلى النظر إلى المجرم على أنه يمثل نوعا من الجنون وأنه عرضة لأمراض القلب واضطرابات الأبصار كعمى الألوان ، كما أنه يتميز بضعف الإحساس وبقوة الاحتمال للألم والبرد . ويرى تارد أنه لا توجد فائدة عملية لمعرفة كل هـذه التفصيلات بالنسبة للقائمين على شئون التحقيقات . فاذا فرضنا أن كل هذه الصفات تجمعت فى فرد ما لدرجة يصح معها أن نعتبره نموذجا كاملا للمجرم فهل يكفى هذا لكى نعطى لأنفسنا الحق لاتهامه بارتكاب جريمة تكون قد وقعت فى الحى الذى يقطن فيه ؟

٣ ـ من ناحية الصفات السيكولوجية التى عددها لمبروزو عن المجرم يرى تارد أن ضعف إحساس المجرم وموت عاطفته لا يرجع إلى أنه مجرم بل لأن المجرمين عادة من طبقات الشعب الجاهلة ذات الحظ الضئيل من الثقافة . وقد لوحظت عند هذه الطبقات ظاهرة احتمال الألم وعدم التأثر . . . . وإذا كان المجرم كما يقول لمبروزو ضعيف الاحساس بالبرد فانه شديد الحساسية للمس الكهربائى والتقلبات

---

(١) سيد بدوى : القانون والجريمة والعقاب فى التفكير الاجتماعى الفرنسى ـ المجلة الجنائية القومية ـ المجلد الثامن ـ مارس ١٩٦٥ .

الجوية . وهو إذا كان شديد الاحتمال للألم الا أنه شديد التأثر بتوقع الخطـــر فيخيفه مثلا رؤية الخنجر مصوبا اليه أو اعلانه باقتراب ساعة استجوابه .

٤ ـ ولقد تعرض لمبروزو للمقارنة بين الجنون والجريمة فبين أن المجرم يولد مجرما أما المجنون فيكتسب جنونه . والفرق يمكن تشبيهه بين الخطيب باللسليقة والمعتمد على كتب الخطابة .

ولم يوافق تادر على هذه التفرقة. فالاجرام والجنون فى نظره كلاهما يكتسب وهو لاينكر أن الجنون يرتبط بحالات فسيولوجية عصبية ، ولكن ذلك لا يمنع ارتباطه بكثير من المؤثرات الاجتماعية ذات الطابع الخاص . والمجرم فى نظر تارد ليس مجنونا وليس نموذجا متخلفا من المتوحش البدائى . وفى رأيه أن دراســـة ظاهرة الجريمة لابد أن تتم فى ضوء المنهج الاجتماعى وذلك بالرجوع الى آثار البيئة والحياة الاجتماعية والنظم السائدة فى تحديد معنى الجريمة ومدى انتشارها فى الأوساط المختلفة . وهو يرى أن الجريمة مهنة اجتماعية فى بيئات اجتماعية خاصة على أن يكون المفهوم من كلمة « جريمة » الجريمة التى تتكرر لا لمجرد حادث يقع لظروف طارئة .

٢ ـ الجهاز العصبى

بينا فى عرضنا الأسس البيولوجية للسلوك فى فصل سابق أن الوراثة لا تؤثر فى السلوك بطريق مباشر ولكن عن طريق التكوينات الجسمانية . وبينا أن من أهم هذه التكوينات الجهاز العصبى المركزى، والجهاز العصبى الأوتونومى، والغدد الصماء . لقد كانت هناك محاولات عدة لتفسير السلوك الإجرامى بالربط بينه وبين وظائف معينة لهذه التكوينات عند بعض الأفراد . وعلى الرغم من وجود العلاقة الوثيقة بين هذه التكوينات ومظاهر السلوك، غير أن كثيرا من النظريات التى تفسر

السلوك الاجرامى على أساس وظائف هذه التكوينات تثير تشكك العلماء ولا يقيم لها الكثيرون اعتباراً. وقد سبق لنا أن أشرنا فى حديثنا عن الجهاز العصبي بأقسامه عن نظرية فريمان والتى حاول فيها بيـــان العلاقة بين نشاط الجهـاز العصبي الأوتونومى والسمات المزاجية .

نظرية فريمان (١٩٤٨)

لقد قسم فريمان النـــاس من الناحية المزاجية طبقا لدرجاتهم على متغيرات ثلاثة هى : ١ ـ استثارة الدوافع ٢ ـ تفريغ الضبط ٣ ـ والقـدرة على التمييز . وتتوقف استثارة الدوافع على ادراك المنبهات ذات الدلالة ، بينما يتضمن الضبط تقدير عواقب الفعل الذى يقوم به الفرد ، بينما يتوقف العامل الثالث على استخدام الفرد للمعلومات التى لديه عن البيئة .

ويعنى هذا أنه من الممكن أن يكون هناك من الناس من تستثار دوافعهم بقوة مع ضعف الضبط عنـــدهم وهؤلاء قد يقترفون الجرائم ويكون تكيفهم سيئا كالسيكوباثين بينما يكون هناك من الأفراد من لا تستثار دوافعهم بسهولة ، ويكون الضبط لديهم قويا وهؤلاء يكون طموحهم محدوداً ويخشون المحاولات الجديدة ، وقد ينتهى بهم الأمر الى المستشفيات العقلية كأفراد تنقصهم الكفاية. أما الشخص الذى تكون درجته مرتفعة على كل من الاستثارة والضبط فقد يؤدى به ذلك الى النجاح وسيبذل النشاط فى الوقت المناسب للعمل المناسب.

ويبدو أن نظرية فريمان تقوم على ايجاد التوازن بين الجهاز السمبثاوى والجهاز الباراسمبثاوى وأولها وظيفتة الاستثارة بينما وظيفة الثانى التهدئة . وهناك من الأفراد من يسود لديهم نشاط الجهاز السمبثاوى بينما هناك من يسود لديهم النشاط

الباراسمبثاوى ويوحى هذا بأن المنحرفين والمجرمين يسود لديهم نشاط السمبثاوى على نشاط الباراسمبثاوى .

فرض الطاقة الجسمانية :

يرتبط الجهاز العصبي الأتونومى بالانفعالات والنواحى المزاجية للشخصية . وقد بينت الدراسات أن الأحداث المنحرفين على سبيل المثال يختلفون عن الأسوياء فى المزاج والنواحى الانفعالية . اذ يتميز المنحرفون بأن دوافعهم أقوى ، وانفعالاتهم أحد خاصة فى النواحى العصبية والعدوانية . وقد أدى هذا إلى افتراض أن المنحرفين بالوراثة أكثر نشاطا وحيوية وبالتالى يتعرضون لإحباط بدرجة أكبر مما يؤدى إلى زيادة عدوانيتهم . ومن أشهر من نادوا بهذا الرأى شلدون . ولشلدون تكنيك خاص لتقسيم الأفراد إلى أنماط جسمانية . وبتطبيق هذا التكنيك على مائتى شاب فى احدى مؤسسات الايداع وجد أن معظم المنحرفين من النمط الذى يتميز بالقوة العضلية والجسمانية ويتميز الأفراد من هذا النمط فى رأى شلدون (١٩٤٢) بالنشاط الزائد والحيوية والعنف والاستجابة الحادة للاحباط . ونظراً لعنفهم فهم يستجيبون للاحباط بالعدوان ، ونظراً لقوتهم فهم ينجحون فى المعارك . ولما كان العراك والاعتداء على الممتلكات مما يعتبر سلوكا منحرفا فان هذا النمط بحكم تكوينه يتعرض للمشاكل . وسنتعرض لنظرية شلدون بالتفصيل فيما بعد .

٣ — الغدد الصماء

من بين أولئك الذين غالوا فى أهمية الغدد الصماء لويس برمان Berman فى كتابين له ظهرا فى سنة ١٩٣٨ و سنة ١٩٢٨ أعطى لنشاط هذه الغدد من الأهمية مالم يمكن تصوره . إذ أدعى دون بيان الدليل أن المرضى بالعصاب ،

والذهان ، وضعاف العقول والمجرمين ضحايا لاضطراب نشاط فى الغدد الصماء وأنه يمكن علاج كل هذه الحالات باعادة الاتزان إلى نشاط الغدد . ويرى أنه يمكن التحكم فى عملية النضج وتكوين الشخصية بالتحكم طبيا فى نشاط الغدد . ويعلق هوسكنز Hoskins (١٩٤١) على ذلك بقوله « قبل اعادة صياغة علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاجرام صياغة مقنعة كمظاهر خاصة من مظاهر وظائف الغدد تبدو الحاجة ماسة للكثير من الحقائق التى نفتقر إليها حاليا » .

لقد اتخذت الدراسات التى تحاول بيان أثر نشاط الغدد على الشخصية اشكالا مختلفة . فى البداية كانت الدراسات تقوم على الملاحظات الاكلينيكية لأولئك الذين يعانون من اضطراب فى نشاط الغدد لأسباب طبية وملاحظة التغيرات التى تطرأ عليهم . وحديثا تقوم الدراسات على التطعيم بخلاصة هرمونات معينة وبيان أثرها . كما تستأصل الغدد من الحيوانات دون ما حاجة مرضية لذلك . وهكذا يتم التوصل حاليا إلى معلومات مستفيضة عن الغدد ووظائفها . غير أن هذه المعلومات كلها لم تعطينا معلومات قاطعة عن أثر الغدد على الشخصية بل زادت الصورة تعقيداً . ويعلق كلجهورن (١٩٥٢) على ذلك بقوله « إننا لازلنا عاجزين عن فصل أثر التغيرات التى تحدث فى البيئة الكيميائية الداخلية عن عوامل الوراثة وعن الخبرات المكتسبة السابقة ، لهذا فان المعلومات التى لدينا حاليا لازالت غامضة عن علاقات غامضة . والمعلومات الثابتة لازالت ضحلة .

٤ — الانماط الجسمانية

توجد محاولات منذ أيام الأغريق لتقسيم الناس إلى أنماط طبقا لمظاهرهم الجسمانية . وقد أشرنا إلى أن أرسطو حدد بعض المظاهر فى الوجه والتى يمكن على أساسها معرفة شخصية الفرد كما حاول هيبوقراط تقسيم الناس الى أنماط تبعاً

لكيمياء الدم ، وقرر أن هناك رابطة بين هذه الأخلاط والأمزجة . غير أن الفراسة phsiognomy أى اكتشاف استعدادات الشخص من ملامح وجهه وجسمه كما أدعى لمبروزو يراها العلماء على أنها لاتقوم على أساس علمى ، ولاينادى بها إلا الأدعياء .

نظرية كرتشمر

حاول الطبيب الألمانى كرتشمر مابين سنة ١٩٢٠ — ١٩٣٠ أخذ مقاييس جسمانية للمرضى فى المستشفيات بأمراض عقلية . وقد وصل نتيجة لهذه المقاييس إلى ثلاثة أنماط جسمانية هى :

١ — النمط النحيل Asthenic or leptosomic : وصاحب هذا النمط يتميز بالنحافة وضيق العظام وفقر الدم ، وجفاف الجلد ، وطول الذراعين ونحافتها ، وضعف العضلات أو الافتقار اليها ، ورقة اليدين .

٢ — النمط الرياضى Athletic : ويتميز الفرد من هذا النمط بالقوة البدنية وانتشار العضلات فى جسمه وضخامتها ، واتساع القفص الصدرى ، ونحافة الخصر وضيق الحوض ، واكتساء ساقية وذراعية بالعضلات .

٣ النمط السمين Pyknic : وفى رأيه أن هذا النوع لا يكتمل النمو فيه إلا فى أواسط العمر . ويتميز باستدارة الجسم ، واتساع الحوض ، كذا سمنة الأطراف مع قلة العضلات .

ويقرر كرتشمر أن هذه الأنماط ليست متمايزة تماما . إذ قد تختلط ميزاتها فى بعض الأفراد . وقد وجد بدراسته لمائتين وستين ٢٦٠ من المرضى بالفصام والجنون الدورى أن معظم المرضى بالفصام من النمط الثالث السمين . ولما حاول تطبيق نظريته على عينة من السويين من غير المرضى ، وجد أن السويين من ذوى

النزعة الدورية Cyclothymes أى أولئك المتقلبون فى عواطفهم الذين يتذبذبون فى مزاجهم بين الفرح والحزن من النمط الثالث السمين ، ووجد أن ذوى النزعة الفصامية Schizothymes ممن يتقبلون بين الحساسية الزائدة والبرود العاطفى وهم المقيدون نفسيا الجامدون من النوعين الأول والثانى .

وخلاصة القول أنه وجدت معاملات ارتباط فعلا بين أنماط كريتشمر الجسمانية والصفات النفسية وخاصة مرضى الجنون الدورى والفصام . غير أن هذه النتائج ليست قاطعة .

نظرية شلدون :

رأى شلدون أن ما يؤخذ على نظريات الأنماط الجسمانية هو أنها تقسم الناس إلى أقسام أو فئات ينفصل بعضها عن البعض . وهذا خطأ لأن أى عامل من العوامل النفسية أو الاجتماعية وحتى الجسمانية انما يمثل ظاهرة متدرجة من أقل درجة الى أعلى درجة. ولا يمكننا تحديد النقطة فى هذا المدرج التى يمكننا عندها أن نضع خطأ أو خطوطا تقسم الناس إلى فئتين أو أكثر . لذا حاول فى انماطه أن يضع هذا التدرج محل الاعتبار للربط بين الصفات الجسمانية والصفات النفسية . وتعتبر نظريته أحدث نظرية فى هذا المجال .

لقد حاول أولا أخذ المميزات الجسمانية بأخذ ثلاث صور فوتوغرافية لكل فرد وهو مجرد من ملابسه من الأمام ومن الخلف ومن الجانب . وقد مكنه هذا من أن يضع الفيلم السلبى للصور الثلاث للفرد الواحد على بعضها ويعكسها على شاشة فأصبح لديه بهذا الشكل صورة لها ثلاثة أبعاد للفرد . وبتطبيق المقاييس الجسمانية تمكن من الوصول إلى ثلاثة أنماط أساسية .

١ ـ النمط البطنى endemorphy : ويتميز أصحاب هذا النمط من الناحية

الجسمانية بامتلاء الجزء حول الجهاز الهضمي أى سمنة البطن ، وهم عادة ذوو أجسام مستديرة رخوة .

٢ — النمط العضلى mesomorphy : ويسود فى هذا النوع العضلات والعظام . والمنطرفون فيه هم النوع القوى من الرجال من رجال الرياضة والسيرك .

٣ — النمط النحيل ectomorphy ويتميز أصحابه بالنحافة والنعومة .

ولتحديد النمط الذى ينتمى اليه الفرد ، يقدر الفرد على ثلاثة موازين تقديرية كل ميزان يمثل نمطا من هذه الأنماط الثلاثة ، ويتكون كل ميزان من سبع درجات أو سبع فئات . يعطى للفرد الواحد درجة على كل هذه الموازين لبيان درجة مالديه من كل منها . وعلى هذا الأساس يكون نمط الفرد عبارة عن حصيلة درجاته على الموازين الثلاثة . ويتحدد نمطه بسيادة درجته على واحد منها بالنسبة لدرجتيه على الميزانين الآخرين . فاذا فرضنا أن درجات فرد كانت ٧ - ١ - ١ فهو من النمط البطنى المتطرف . وإذا كانت درجته ١ - ٧ - ١ فهو من النمط العضلى المتطرف وهكذا . أما إذا كانت درجته ٤ - ٤ - ٤ فهو شخص متوازن فى بنيته . وانتهى شلدون إلى تحديد ٧٦ نمطا من الأنماط الجسمانية .

ولتقدير الطبقات المزاجية لهذه الانماط اختار ٥٠ سمة من السمات من عدد كبير من السمات التى تمثل الانطوائية والانبساطية . ثم اختار مجموعة من الطلبة وحاول تقديرهم فى هذه السمات على ميزان للتقدير درجاته سبع . وحاول ايجاد معاملات الارتباط بين هذه السمات لكى يجد المجموعات التى ترتبط ببعضها . وبعد حذف وإضافة انتهى إلى ميزان لقياس المزاج يتكون من ٦٠ سمة كل منها يتجمع مع بعض .

وسمى بمجموعة السمات الأولى ا : بالنزعة الاحشائية : Viscerotonia ويتميز من توجد فيه هذه السمات بالبساطة والحياة المرحة واللذة فى الأكل والشراب والروح الاجتماعية والصبر واحتمال الغير والحاجة الى الناس والحاجة إلى اللهو وتسيطر عليه معدته وامعاؤه .

(ب) النزعة البدنية Somatonta : ويتميز أصحابها بالنشاط الجسمانى والقدرة على بذل الطاقة والمجهود وحب السيطرة والمخاطرة والصراحة فى معاملة الناس ويسيطر عليهم الاندفاع والقوة .

(ح) النزعة المخية Cerebrotonia : ويسيطر فيها المخ . وصاحبها مقيد لايتميز بالطلاقة ويميل إلى العزلة والابتعاد عن المجتمعات .

وقد حاول إيجاد معاملات الارتباط بين هذه النواحى المزاجية وانماطه الجسمانية . فوجد أن كل واحدة منها ترتبط بنمط من انماطه الجسمانية .

ولاينكر العلماء فائدة النظام الذى وضعه لقياس الصفات الجسمانية ، بيد أنهم يتشككون فى الرابطة التى يراها بين هذه الأنماط المزاجية .

ولعل أهم تطبيق لنظرية شلدون فى ميدان الجريمة والانحراف فبالإضافة إلى الدراسة التى سبق أن أشرنا إليها قام جلوك وجلوك (١٩٥٠) فى دراستها التى تدور حول ٥٠٠ حدث منحرف قورنوا بمجموعة ضابطة تتكون من ٥٠٠ حدث سوى بمقارنة الأنماط الجسمانية التى قدمها شلدون للمنحرفين والأسوياء . فتبين أن ٦٠٪ من مجموعة المنحرفين ينتمون إلى النمط العضلى بينما يوجد هذا النمط فى مجموعة الأسوياء فى نسبة ٣١٪ فقط .

كما بينت هذه الدراسة أن هناك سمات ترتبط بالتكوين الجسمانى كما ترتبط بالانحراف، فالمنحرفون من النمط العضلى ترتفع درجاتهم على سمة تأكيد الذات بينما تنخفض على النزعات الماسوكية (التلذذ بالألم)، كما ترتفع على الاستجابات الحركية

غير المقيدة وترتفع قليلا على حب التملك ، وتنخفض على التمسك بالعرف والسلوك العملى .

كما كانت هناك سمات ترتبط بالانحراف غير أنها لا ترتبط بالنمط الجسمانى. مثل العدوانية ، والشك ، والاستعداد للايحاء ، والعند ، والمغـــامرة . وكان المنحرفون أكثر كراهية لمواقف الفحص النفسى والجسمانى ، وأكثر استعداً للإنفجار .

وفيما عدا هذه الدراسة لم تبين الدراسات الأخرى علاقة قاطعة بين الأنماط الجسمانية والشخصية . ففى دراسة قام بها تشايلد Child (١٩٥٠) وهذه الدراسة تقتبس أحيانا لتأكيد صحة نظرية شلدون كانت معاملات الارتباط بين الأنمـاط الجسمانية والسمات المزاجية منخفضة جدا عن تلك التى ساقها شلدون . لذلك لا يمكننا إلا القول أن نتائج هذه الدراسة لا تؤكد نتائج شلدون إلا فى مستوى ضعيف .

غير أن دراسة دافيدسون وزملائه (١٩٥٧) على الأطفـال الانجليز تعطى بعض التأكيد لنظرية شلدون . إذ يقال دائما أن نظريته لا يمكن تطبيقها على الأطفال غير أن دراسة دافيدسون قد دارت حول ١٠٠ طفل فى سن السابعة حاول الباحثون فيها إيجاد معاملات الارتباط بين الأنماط الجسمانية كما يحددها شلدون وتقديرات الشخصية التى قام بها عدد من الملاحظين. لقد بينت هذه الدراسة أن الأطفال من النمط العضلى يميلون نحو السيطرة بينما الأطفال من النمط السمين والنمط النحيل يميلون نحو الخضوع .

لقد جذبت نظرية شلدون الانتباه فى أوربا حيث تحمس لها كثير من العلماء الأوربيين غير أن شلدون نفسه يحذر من أن التكوين الجسمانى وحده لا يمكن

اتخاذه وسيلة للتنبؤ بالانحراف ، إذ أن محاولة التنبؤ بشيء كالاجرام من التكوين الجسماني وحده يكون كمحاولة التنبؤ بأين تصيب الرصاصة عن طريق وصف البندقية والرصاصة . في حين أن الأمر يستلزم أيضا تناول عوامل أخرى مثل الطريقة التي صوبت بها البندقية » (١٩٤٩) .

الموقف الحالي في تفسير الجريمة :

ان المنادين بالسبب الوراثي أو البيولوجي أو التكويني لم يحتكروا الميدان فقد قام أنصار البيئة يعزون أسباب الجريمة إلى الظروف البيئية . ومن أوائل علماء الاجرام الاجتماعي كوتيلت ، وكروبتكين . ففي رأي كوتيليت أن البلاد الجنوبية تتميز بجرائم القتل بينما البلاد الشمالية تتميز بجرائم السرقة ، بينما كان كروبتكين يقول : خذ متوسط الحرارة في الشهر واضربه في ٧ ثم أضف إلى الناتج متوسط درجة الرطوبة واضربه في ٢ فتحصل على عدد جرائم القتل في هذا الشهر .

ومن الواضح أن كل هذه الآراء كانت تهتم بتحديد أنماط للمجرمين ، كما كانت تهتم بالسببية في السلوك الاجرامي . غير أنها غالبا ما كانت تعزو السلوك إلى عامل واحد وغالبا ما كان هذا العامل جسمانيا أو بيولوجيا بالاشارة الضيقة إلى المجتمع أو العوامل النفسية . فباستثناء افلاطون كان السلوك يفسر ويعزى إلى قوى ستاتيكية ليست ديناميكية . فأرسطو عزاها إلى قوة بيولوجية . ولم ينجو أصحاب مبدأ اللذة والألم من الوقوع في الحتمية . ويعتبر رأيهم في الواقع شكلا آخر من أشكال الغريزة . أما نظرية الارادة الحرة فقد تركت الانسان ليختار بين أمرين اجتماعيين كل منهما محدد بقوى خارجة عن إرادة الانسان نفسه .

وان كان رأى مونتسكيو وتارد ينجران من بعض هذه الانتقادات غير أنها يحاولان تفسير السلوك فى ضوء قوى طبيعية وان كان هذا لا يصدق تماما على رأى تارد غير أنه إذا كان فى رأيه أنه من الطبيعى أن يقوم الانسان بتقليد من حوله فكأن التقليد عملية أوتوماتيكية وحتمية . وان كان رأى تارد يتفق ومبادىء علم النفس الحديث إلا أنه مبسط جدا فعلاقة الانسان بالمجتمع علاقة معقـــدة ولا يمكن أن يعزى سلوك الانسان إلى سبب واحد وقوة غير متغيرة كالتقليد .

ان الاتجاه الحالى فى دراسة أسباب الجريمة يقوم على :-

١ — تعدد العوامل وتشابكها وتداخلها وتفاعلها ويكفى أن نعرف أن هيلى فى ١٩١٥ حدد ما يقرب من ١٣٨ عاملا بينما عدد بيرت ١٧٠ عاملا . ونرى أن تعدد العوامل يبرزه دراسة مثل دراسة جلوك وجلوك التى سنشير إليها فى الوقت المناسب . مع مراعاة التفاعل الذى يتم بين هذه العوامل .

٢ — يقول لابيير وفارنزورث أنه إلى عهـــد حديث كان الاهتمام النفسى الاجتماعى موجها إلى العمليات التى يتم بها اكتساب الفرد خصائصه الاجتماعية خلال خبراته مع الآخرين وقد اكتسبنا الكثير من المعلومات فى هذه الناحية وتجاهلنا المواقف الاجتماعية التى يتعلم فيها الفرد أو يسلك . نتيجة لهذا كان هناك اتجاه إلى دراسة عملية التعلم دون الاهتمام بموقف التعلم ، وتناول الفرد دون الاهتمام بالتفاعلات الاجتماعية ، والاتجاه الحالى هو دراسة الفرد فى عملية التفاعل الاجتماعى بينه وبين الموقف .

لذلك تستلزم دراسة الجريمة معرفة طبيعة التفاعل الاجتماعى الذى يمدنا بدور تكوين الشخصية وعوامل ثباتها ، ويتطلب ذلك معرفة السلوك المقبول اجتماعيا فى الثقافة أو معايير السلوك فى المجتمع .

٣ - إذا كنا نبحث عن الأسباب فلن نجدها إلا إذا توصلنا إلى قوانين علمية تمكننا من التعميم ، وامكانية تحقيقها أو رفضها . والقوانين السببية تعنى أن هناك عاملا معيناً ينتج دائماً تغيراً فى عامل آخر وليس لدينا حالياً قوانين سببية فى تفسيرنا للجريمة، ولكن لدينا اتجاهات تعميمية، وهى تمثل بعض الانطباعات التى لوحظت ولكن لا يتوفر فيها كل الظروف والشروط التى يجب توفرها فى قانون يستحق التعميم وان كانت تعتبر مرحلة أولية قد تؤدى بنا إلى تكوين قانون عام ولها فائدتها غير أنه يجب أن نؤخذ بحرص فى تفسيرنا للأسباب .

وإذا كانت بعض الدراسات تبين لنا معاملات ارتباط بين الجريمة وبعض العوامل يجب ألا نؤخذ هذه النتائج كقوانين سببية ، انما هى قوانين عددية تعبر عن ارتباط بين ظواهر مختلفة فى شكل معادلة دون استخدام مفهوم لسببه .

٤ - ستقوم دراستنا فى تفسير الجريمة فى ضوء الأسس البيولوجية النفسية والأسس الاجتماعية النفسية والتحليل النفسى التى سبق شرحها ، إذ أن الاتجاهات الحديثة فى تفسير الجريمة مستمدة من هذه الأسس .